# العيش في المستتر

ولمَ نحيي ذكراها دوناً عن سواها؟
كم من حرب غيرها وقعت على هذه الأرض؟ كم من حرب تدور رحاها اليوم بين زحام الركام الذي يسمّى حياتنا؟
متى كانت هذه الرقعة الجغرافية وطناً؟
كيف يمكن لهذا القدر من الغربة أن ينشأ بين فئات تعيش على أرض لا يفصل أقصاها عن أقصاها أكثر من ساعة أو ساعتين، وفي مرات ثلاث، بالسيارة؟
هل تحولت هذه البلاد إلى وطن في السنوات التي تكاد تناهز السبعين منذ أن أعلن قيام الدولة؟
كيف استتر الطبقي، ويستتر، تحت قناع الطائفي، ثم المذهبي، كي تستمر حفنة من الأسر، يزيد عددها أو ينخفض، تتغير أسماؤها أحياناً والوجوه، في تحديد مصير ملايين البشر الذين لا يعرف أحد عددهم بعد؟
كيف لهذا العدد من الكفاءات المتميزة في الآداب والفنون والعلوم، وفي الوطنية، في الداخل وفي الخارج، أن يرضى بأن يحكمه من هو دونه حباً لحياته؟
لمَ نحيي ذكراها ولا يبدو أن من بيننا من اعتبر؟
لم نحيي ذكراها ويومياتها المضنية ما زالت تعشش في مكانة بين الضلوع وبين الرئتين، تطبق على الصدور، وتلوث ما نتنفسه ونراه ونسمعه ونقوله ونفعله، فيما نحن نمعن في رفض ولوج الطريق المؤلم الوحيد القادر على إخراجها منا وإخراجنا منها.
من يريد أن يقرأ اليوم أو يسمع تفاصيل تلك الحياة التي كانت تنحصر بين زقاقين ونيف، تدور بطيئة لزجة في الظلمة والعطش؟ حياة مفاتيحها بين أيدي فتيان مسلحين بلحى يأتمرون بأوامر أمراء شوارع نحيا ونموت على وقع أمزجتهم وحساباتهم.
من يريد أن يعود إلى الوراء والنظر إلى الغلط بعينه لتخطيه؟
كيف، وهم هم من يملكون اليوم أيضاً مفاتيح الموت والحياة؟ كيف وهم ما زالوا يستبيحون الفرد، في رزقه، في روحه، في غده، في تفاصيل يومه؟ حتى الجديد بينهم لا يطمح إلى تغيير اللعبة. جل ما يطلبه هو أن يقبله الآخرون داخلها. على وقع أمزجتهم، نحيا ونموت.
لكنه موت بطيء، ما نحياه اليوم. ما زالت لعبتهم قائمة، وحسابات الربح والخسارة لم تتغير: نحن البيادق، وكلما جمع طرف منهم عدداً أكبر منا، كلما اقترب من الفوز. ونحن ننساق، في كل مرة. نتكتل كالأشياء بالقرب من أحدهم. نقتنع أن ما من وسيلة أخرى لرد العوز، والمرض، والجهل، والعراء عن أولادنا، أو نقتنع بأن الهجرة هي الحل.
نحن وقود نار نضرمها في كل مرة لتحرقنا. نحن ندور كالفراشة حول ضيّ ليس ضيّاً، تلسعنا شراراته ونستمر، ونقنع أنفسنا أن ما من سبيل آخر.
والاستهتار بالأرواح الذي ساد بين العامين ١٩٧٥ و١٩٩٠ ما زال سائداً. توقفوا عن قتلنا بالرصاص والصواريخ. باتت سبل القتل متنوعة: مياه ملوثة، نعرف بوجودها ولا نملك إلا أن نشرب منها. طرقات بحفر كفيلة بزهق حصيلة يومية ثابتة من الأرواح. مبيدات محظورة لإنضاج ما نأكله ونطعمه لأطفالنا. ١١ مليار دولار من شقائنا ومن مستقبل أولادنا لكهرباء مظلمة وظالة. قوانين تطبّق اعتباطياً، وأخرى لم يعد يتذكرها أحد. نساء بأولاد بلا جنسية. مغتربون لم يطأوا أرضها يقررون من يحكمها. سكاكين وأيادٍ تتشابك في ملاعب مدارس يفترض أنها حكومية. مرضى يلفظون أنفاسهم الأخيرة على أبواب مستشفيات توصد في وجه آلامهم. أخطاء طبية قاتلة تحميها قوانين نقابية، تكاد تشرّعها. مبانٍ تنهار على أصحابها. أطراف تتجمد كل شتاء، ولا تجد إلا أغصان الأشجار النضرة وسيلة لرد البرد. غلاء مستشر. محاكم معطلة. هيئات أمنية تفتقر إلى المصداقية. أدوية فاسدة ومنتهية الصلاحية. حليب عفن، عقارات بأسعار تستبعد أبناء البلد. مطاعم تنبت كالفطر، فنادق، زحمة سير، غني وفقير، قلة ذوق. وعلى فكرة، أين تقع عكار؟
أطفال دون الخامسة ينتزعون من أحضان أمهاتهم بحجة أن الأب أولى، وأجدر. نساء تذوين لأن لا قوانين تحميهن: في الزواج، في الطلاق، إن عُنّفنَ، إن ضُربن، وحتى إن قُتلن بداعي «الشرف». رجال تمتهن كراماتهم في سعيهم للعيش الكريم. أصحاب حاجات خاصة مهملون، مخدرات على أبواب المدارس، «جامعات» خاصة بمناهج «خاصة جداً». «فنانات» وفنانون على قدر عدد الفانات. سيارات أجرة عددها يكاد يفوق عدد الركاب. باصات عملاقة فارغة تجوب شوارع المدينة ومحيطها. لا رقيب. لا حسيب. لا من يرد ضيماً. لا حامي. لا عدالة ولا عدل. لا معايير واضحة تحكم الجماعة.
مخيمات فلسطينية محاصرة، مهانة، وعرضة لهجوم مسلح في أي وقت.
سني وشيعي، عوني وقواتي. سوريا وإسرائيل. مستوصفات ومدارس خاصة لكل المذكورين. حياة رديفة، رشوة مستترة، خدمات تضرم النار كلما خمدت.
لم تنته الحرب. انتهى تساقط الحمم المعدنية. كيف يستتر ما نعيشه اليوم تحت قناع السلم الأهلي؟
كانت حياتنا مستباحة، ما زالت حياتنا مستباحة.
لم تنته الحرب، فقط تلاشى الأمل الذي كان يحفّز على الصمود في وجهها، الأمل بما سيكون يوم تتوقف.
لم تنته الحرب. لم تنته قط. ما حصل هو أن قانون عفو صدر. هم أصدروه. هم عفوا عن أنفسهم. ونحن ما زلنا نتكتل من حولهم.

**هنادي سلمان**